الفصل الثانى

توافق الأفكار والتعابير فى أدب « الرابطيين »

ما ذكرت « الرابطة القلمية » مرة إلا ذكرت معها قفير النحل الذى يزخر بالحياة والبركة . وأعضاء الرابطة القلمية يشبهون النحل من نواحٍ كثيرة : ففيهم من النحل نشاطه ، وحلاوة إنتاجه .

وكما يحوم النحل فى الحقول الزواهى ، يمتص من أزاهيرها أعذب الرحيق يحوّله إلى شهد لذيذ ، كذلك كان الرابطيون يمتصون رحيق الحياة الكامنة فى نفوسهم ، وسلاف المعانى التى تقدمها الطبيعة ، ويوحى بها المجتمع الإنسانى ، فتحوله أقلامهم أدباً أطيب من الشهد ، وأكثر منه حلاوة .

وكما تحوم جماعة من النحل حول زهرة واحدة ، فتمتصّ كل منها شيئاً من رحيقها ، كذلك كثيراً ما حام أدباء الرابطة حول عدد من المعانى الواحدة ، فخرجوا منها بفكرة واحدة ، وروح واحدة ، وإن تنوّعت القوالب اللفظية فى التعبير . ومع ذلك لم يفقد أحـــد منهم شخصيته الأدبية ، ومميزاتها المتفرّدة .

وليس فى توافق أفكار الرابطيين شىء من الغرابة ، فقد كانوا فئة قليلة العدد من الشبان ذوى المواهب الأدبية المتفوقة ، والنزعات الفكرية الحرة ، والعقول النيّرة ، جمعت بينهم الغربة ، بعد أن كان يجمع بينهم الوطن العربى الواحد ، فى سوريا ولبنان ، وجمعت بينهم الغيرة على إنقاذ الأدب العربى من جموده وقيوده ، وألف بينهم الاستعداد الطبيعى ، والقدرة على العمل المنتج . وكان الجو حرًّا يسمح بالعمل ، والآفاق واسعة تسمح بالتنفس ملء الرئتين .

كل هذا جعل لهذه الجماعة الصغيرة شخصية أدبية واحدة ، قوية ، مبدعة . فبدأوا العمل برغبة وحماسة ، والتفوا حول جريدة واحدة — كانت أولا « الفنون » لنسيب عريضة ، حتى قضت ، فالتفوا حول « السائح » لعبد المسيح حداد — يحرّرونها ويولونها كل رعاية وعناية . وكانت دارها ندوتهم اليومية ، وملتقى أحاديثهم ،

ومجتمع افكارهم . ولذلك كان لا بد من ان تتوافق افكارهم ، وتتقارب تعابيرهم ، بعد أن توحدت مبادئهم ، وتآلفت ارواحهم ، وان يظهر هـذا كله فى إنتاجهم الادبى الجميل .

ومن الحق أن نذكر ههنا انه قد كان لوجود جبران على راس هذه الجماعة – وقد كان هو أسبقهم إلى الظهور فى الميدان الأدبى ، بقلمه الجرىء ، ومبادئه الفكرية الحرة المخصبة – اثر بعيد جداً فى افكارهم وإنتاجهم الأدبى . والمبادئ الفكرية التى كان يعالجها بقلمه ، من مثل الأخوة الإنسانية الشاملة ، وعقيدة تناسخ الأرواح ، ووحدة الوجود ، تركت أثرها فى نفوس زملائه فترددت على أقلامهم بتعابير متنوعة ، وأساليب متفاوتة .

ولعل من الحق أن نذكر أيضاً أن أكثر من تأثر بهذه الروح الكبيرة ، وبمبادئ صاحبها وعقائده الفكرية ، واتخذ منها رسالة أدبية وروحية يبشر بها بعد صاحبها ، وينافح عنها بكل قوة وبراعة ، هو ميخائيل نعيمه : فوحدة الوجود ، والأخوة الإنسانية ، اللتان بشّر بهما جبران فى كثير من مؤلفاته ، هما عماد أدب نعيمه ومحور إنتاجه الادبى ؛ وعقيدة التناسخ التى رددها جبران فى كثير مما جرى به قلمه من الفصول ، منذ بدء ظهوره الادبى ، كانت محور قصة « لقاء » ، لنعيمه ، وعدد آخر من فصوله الباقية ؛ والافكار الفلسفية التى ردّدها جبران فى « رمل وزبد » و « النبى » خاصة ، نجد لها مثيلا فيمـا كتبه نعيمه . وكما وضع جبران كتابه « النبى » ليحمل خلاصة فلسفته وآرائه فى الحياة والوجود ، و « رمل وزبد » ليحمل الإشعاعات الخاطفة من تاملاته وخطرات روحه ، كذلك وضع نعيمه كتابه « مرداد » ليحمل خلاصة فلسفته وآرائه فى الحياة والوجود ، و « كرم على درب » ليحمل الإشعاعات الخاطفة من فكره .

أما الروح الإنسانية خاصة ، فهى عماد ادب الرابطيين ، إخوان جبران وزملائه ؛ وكذلك حب الطبيعة ، وعمق الإحساس بها ، وخلق الحياة فى كل ما فيها ، واتخاذ العبرة منها .

وكذلك يتفق الرابطيون فى فهم الادب ، وفى روح التجديد فى اللغة والمعانى ، ويتفقون ايضاً فى الإحساس والتفكير ، وفى التعبير عن إحساسهم وتفكيرهم ،

وفى الاعتقاد الراسخ بأن الفكر الخالق والخيال المبدع هما اللذان يحييان اللغة ، وليست القواميس وكتب اللغة . وسنتحدث على هذا فى فصل لاحق عقدناه على « رسالة الادب المهجرى إلى اللغة العربية » .

اما ما عدا ذلك ، فسنرى فيما يلى بعض الافكار والمعانى التى طرقها الرابطيون فى ادبهم الإنسانى الجميل . ولعل اول ما تجدر الإشارة إليه تلك النداءات الإنسانية التى تهزّ النفوس بحنان عذب ، وتحرك القلوب برقة ساحرة ، من مثل : « أخى ، صاحبى ، رفيقى ، وغيرها » ؛ هذه التعابير التى لم يعرفها الأدب العربى سابقاً بمثل هذه الروح النبيلة والمشاعر الرقيقة التى عرفها فى أدب المهجر .

وليست قصيدة « اخى » لميخائيل نعيمه بمجهولة ، وهى من اروع الشعر الإنسانى المؤثّر . وكذلك قول أبى ماضى فى قصيدة « الفاتحة » :

يا رفيقى ! أنا لولا أنتَ ما وقّعتُ لحْنا

إلخ .

وفى « الطين » :

يا أخى لا تُشِح بوجهكَ عنّى ... ما أنا فحْمةٌ ، ولا أنتَ فَرْقَد

وقول نسيب عريضة :

يا ابْنَ ودّى ، يا صاحبى ، ياصديقى ... ليس حُبِّى تطفلاً او ثقالَه
فأجبْنى بـ « يا اخى » ، يا صديقى ... وأعدْ ، إنّها الذّ مقالَه

وقول ندرة حداد :

يا أخى السَّاعى لنيل الـ ... مجْد خفّف عنك جمحكْ

وغير هذا كثير لا يمكن سرده فى مثل هذه الإلمامة ، وكله يدلّ على عاطفة إنسانية فسيحة ، ملؤها النبل ، والرقة والحنان ، وعلى قلوب إنسانية سُبكت فى الفردوس ، ثم أهبطت إلى الارض لتعلم الناس كيف يسمون بإنسانيتهم .

ومن التوافق اللطيف فى أدب الرابطيين نذكر قول جبران فى فصل له بعنوان « ايتها الأرض » :

« ما أكرمك أيتها الأرض ، وما أطول أناتك ! نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح ، وانت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم ؛ نحن نزرع راحاتك بالعظام

والجماجم وأنت تستنبتينها حوراً وصفصافاً ؛ نحن نستودعك الجيف ، وانت تملئين بيادرنا بالأغمار ومعاصرنا بالعناقيد ؛ نحن نصبغ وجهك بالدم ، وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثر »

وقد لخص نعيمه هذه المعانى بقوله فى « زاد المعاد » : « هى النكبة أن تسقينا الأرض من عصير قلبها الطاهر ، فنسقيها من دماء قلوبنا الممزّقة بشفار بغضائنا وأهوائنا » .

ويقول أبو ماضى فى قصيدته « الطين » ، واصفاً بساطة الطبيعة وعدم تملقها أو محاباتها :

إنَّ طيْرَ الأراك ليس يُبـــالى ... أنتَ أصغيتَ أم أنا إنْ غَـرَّدْ
والأزاهـــير ليس تســـخرُ من فقـ ... ـرى ولا فيكَ للغِنَى تتـــورَّدْ

وفى قصيدته « كتابى » إذ يقول أيضاً :

وشاهدتُ كيفَ النهرُ يبذلُ مـــاءهُ ... فلا يبتغى شكـــراً ولا يدَّعى فضْلا
وكيف يزينُ الطلّ ورداً وعَـــوسَجاً ... وكيف يروّى العارضُ الوعرَ والسَّهْلا
ودينى الذى اختـــارَ الغـــديرُ لنفسهِ ... ويا حسْنَ ما اختارَ الغديرُ وما أحلى !
تجىءُ إليـــه الطيرُ عطْشَى فـــترتوى ... وإن وردتْهُ الإبلُ لم يزجر الإبْلا
ويغتسلُ الذّئب الأثيم بمـــائِه ... فلا إثمُ ذا يُمحى ، ولا طهرُ ذا يبلى

وفى عدد آخر من قصائده الروائع ، مثل « المساء » و « الشاعر والسلطان الجائر » و « الطلاسم » وغيرها .

وإذ ننظر فى مؤلفات نعيمه نجد هذه المعانى نفسها منبثّة هناك ، كقوله فى « زاد المعاد » ، تحت عنوان « ستور الطبيعة » : « وجارى – صنّين – جار كريم حليم ؛ يجول فى جوّه النسر والخفّاش ، فيمدّ بساطه للاثنين عـــلى السواء . يتسلّقه الغنى فلا ينحنى أمامه قائلا : أهلا وسهلا ، والفقير ، فلا يعبس فى وجهه وينتهره : اغرب عنى ؛ وتشرب من ينابيعه العنزة الصحيحة والجرباء ، فلا يسقّى الأولى ماء زلالا ، والثانية ماء عكراً » .

وهذه المعانى تذكّرنا « بمواكب » جبران التى أكثر فيها من الحديث على عدل الطبيعة ومساواتها . ومما قاله فى هذا المعنى :

ليس في الغابات حــــرٌّ   لا ولا العبــــدُ الزّنيم
إنما الأمجـــادُ سخفٌ   وفقـــاقيــعُ تَعُــوم
فإذا ما اللـــــوزُ ألقَى   زهـــره فـــوقَ الهشيم
لم يقُلْ : هــذا حقيرٌ   وأنا المـــولى الكَريم

وكذلك يتوافق جبران وأبو ماضي في معان كثيرة ، نذكر منها قول جبران في « رمل وزبد » : « ما أنبل القلب الحزين ، الذى لا يمنعه حزنه من أن ينشد أغنية مع القلوب الفرحة » ، وقول أبي ماضي في المعنى نفسه :

قال : الليــالى جرَّعَتْنى علْقمــاً   قلت : ابتسمْ ولئن جرعتَ العلْقَما
فلعلّ غــيرَك إن رآكَ مــرنِّماً   طرح الكــآبة جانباً وترنَّمــا

ويتوافق أبو ماضي ونعيمه في معان أخرى ؛ فمثلا يقول أبو ماضي :

كم تشتكى وتقولُ إنَّك معــدمُ   والأرض ملكك والسما والأنجمُ
ولك الحقول وزهْرُها وأريجُها   ونسيمُهـــا والبلبـــلُ المترنِّمُ

فيقول نعيمه : « أوَلم تعطك الحياة السماء وكل ما فيها ، واليابسة وكل ما عليها ، والبحار وكل ما في أحشائها ؟ » .

ويقول أبو ماضي « في الأسطورة الأزلية » :

هم حدّدوا القبحَ فكان الجمالْ   وعرّفــوا الخيرَ فكان الطَّلاحْ
وليس من نقصٍ ولا من كمالْ   فالشَّوكُ في التَّحقيق مثل الأقاحْ
وذرّة الرمــل ككلّ الجبـــالْ   وكالذى عَــزّ الذى هانا

فيقول نعيمه : « لا الجبل أثقل من ذرة الرمل ، ولا الثور أعظم من الضفدع ، ولا الثمرة أثمن من الحطبة ، ولا الزهرة أقدس أو أجمل من الشوكة » .

وكذلك يتوافق أبو ماضي وندرة حداد ؛ فيقول أبو ماضي في قصيدته « الفاتحة » :

يا رفيقى ! أنا لولا أنتَ ما وقّعتُ لَحْنــا
كنتَ في سِرّى لمَّــا كنتُ وحـــدى أتغنى
هذه أصداءُ روحى ، فلتكن روحُك أُذْنا
ربمــا كنتُ غنيًّا ، غــير أنى بكَ أغنى

يا رفيقى ! أنت إن راعيتَ فجرى صار أسْنى
وإذا طفتَ بكَرْمى ، زدته خصبًا وأمْنَا
قد سكبتُ الخمر كى تشربَ فاشرَبْ مطمئنا
كلما أفرغتُ كأسى ، زدتَ فى كأسىَ دنَّا

ويقول ندرة حداد فى قصيدته « سر معى » :

يا أخى السَّاعى لنيل المجدِ ، خفِّف عنك جَمْحَكْ
أنا راضٍ بالعصا يا أيّهـــا الحامـــل رمْحَكْ
وسأرضى خبْزَك الأسودَ فى الحبّ وملْحَـــكْ
وسأنسىَ جرحَ قلبى ، كلَّما شاهدتُ جرْحَكْ
وأرى ليلك ليلى ، وأرى صبحىَ صبْحَكْ
وإذا أخطأتَ نحـــوى فأنا الطَّالبُ صفْحَكْ

إن هاتين القصيدتين تحومان حول معنى حنون واحد ، فيه أجمل وأنبل ما يمكن أن ينبض به قلب ، من معانى المحبة والأخوة والعواطف الإنسانية الصادقة المخلصة .

ويشترك ميخائيل نعيمه مع هذين الشاعرين ، إذ يقول فى فصل « إخوة غرباء » من كتابه « صوت العالم » : « أدركت يا أخى أننى ما خطوت خطوة فى حياتى إلا كانت يدك فى يدى ، وساعدك إلى ساعدى ، وكتفك إلى كتفى . . وأننى حييت لا بما فىّ وحدى من حياة ، بل بما فيك وفىّ من حياة . . . وها أنذا أستغفرك جميع ذنوبى إليك – وما أكثرها – فهلا غفرت ؟ » .

وقد حام نسيب عريضة فى عدد من قصائده حول هذه المعانى الحنونة التى طرقها زملاؤه . ونشير بنوع خاصّ إلى قصيدتيه « ادن منى » و « يا أخى » فى ديوانه « الأرواح الحائرة » .

ونحن حين نقرأ هذه الأقوال جميعها نتذكر جبران – عميد الرابطة – إذ يقول فى « دمعة وابتسامة » : « أنت أخى ، وكلانا ابن روح واحد قدوس كلّى ، وأنت رفيقى على طريق الحياة . . . أنت إنسان ، وقد أحببتك يا أخى . خذ منى ما شئت ، فلستَ بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرتُ به

لمطامعي ؛ فأنت خليق ببعضه ، إن كان يرضيك بعضه . أنت أخى ، وأنا أحبّك » .

ومن الأدلّة على توافق الرابطيين فى معان أخرى ، قول جبران ، تحت عنوان « وعظتنى نفسى » : « وعظتنى نفسي فعلمتنى ألا أقيس الزمن بقولى : « كان بالأمس ، وسيكون غدًا » . . . أما الآن فقد عرفت أن فى الهنيهة الحاضرة كل الزمن ، بكل ما فى الزمن مما يرجى ويُنجَز » .

وأيضاً : « وعظتنى نفسى فعلّمتنى ألا أحدّ المكان بقولى : « هنا وهناك وهنالك » . . . أما الآن فقد علمت أن مكاناً أحلّ فيه هو كل مكان ، وأن فسحة أشغلها هى كل المسافات » .

ويقابل هذا قول نعيمه فى « زاد المعاد » : « والخيال الذى يطوى كل الزمان فى « الآن » ، ويحشر كل المكان فى « هنا » ، لا يبصر شيئاً من التفاوت » ، وأيضاً : « فكل الأغداء إنما هى هاجعة فى حضن هذا اليوم » . وقوله كذلك : « كيفما انقلبتم تناولتم من الحياة ما يستحيل عليكم فصله عن سواه وعنكم ، ووجدتم أنكم فى كل شيء ، وأن كل شيء فيكم ، وأنكم لا يحصركم مكان ، ولا يحدّكم زمان » .

وكذلك قد يتفق الرابطيّون حتى فى اللهجة الساخرة المتهكّمة ؛ فمثلا يقول أبو ماضى :

ألكَ الروضةُ الجميلةُ ، فيها الـ ـماءُ والطيرُ والأزاهـرُ والنَّدّ ؟
فالْجم المـاءَ فى الغـدير ومرْهُ لا يصفّق إلاّ وأنت بمشْهَـدْ
وازجر الرّيحَ أن تهـزّ وتلوى شجرَ الروض إنه يتأوّدْ ! . . .

ويقول نعيمه فى نفس المعنى : « . . . إذًا ضع البحر فى جيبك ، والشمس والقمر والنجوم فى بيتك ، واحبس الهواء فى خزانتك ، واحصل على صك بشذا الأزهار وأغاريد الأطيار . . . »

أمّا حبّ الطبيعة ، واندماج الرابطيين الشعورى فيها ، فلسنا فى حاجة إلى ضرب الأمثلة والشواهد عليه ، لأنه صفة عامة فيهم ؛ وفى الأمثلة القليلة التى أوردناها فى هذه العجالة ما يكفى للدلالة عليه . فالطبيعة عندهم هى رمز الجمال

والحرية والمحبة ، وهى الملهم الأكبر ، والمصـــدر الذى يقتبسون منه أمثلتهم وتوجيهاتهم .

وأما الحنين إلى الوطن ، هذه العاطفة الملتهبة التى اكتوى بنيرانها كل أديب مهجرى ، فإن من لغو القول الإتيان بشواهد على توافق أفكار الرابطيين – وغير الرابطيين أيضاً – وتعابيرهم فيها ؛ فهى عاطفة مشتركة بين الجميع ، وقد أبدع فيها أدباء المهجر عموماً ، بشكل لم يسبق أن عرفه تاريخ الأدب العربى من قبل . وأكثر من نظموا فى الحنين الحار ، بين الرابطيين هم : رشيد أيوب ، وأبو ماضى ، ونسيب عريضة ، وندرة حداد .

وبعد ، فهذا وشل من فيض مما يمكن الاستشهاد به فى هذا المجال . والدارس المستقصى لا بد له من أن يلاحظ هذا التوافق فى الفكر والتعبير لدى أدباء الرابطة القلمية ، لكثرته . ولذلك رأينا أن نخصص له هذا الفصل للدلالة عليه ، ولنذكر أن التوافق الذى رأيناه فى العبارات القصيرة المتفرقة يستتبع توافقاً فى الفصول الطوال التى كتبت فى معانيها ، والتى تناولها كل من الرابطيين بأسلوبه الخاص ، وخلع عليها من شخصيته المبدعة .

غير أننا لا نستطيع أن نحصى كل المعانى والأفكار والتعابير التى تناوبت على طرقها أقلام الرابطيين فى مثل هذه الإلمامة السريعة .

وملاحظة أخيرة لا بد منها وهى أن النقاد القدماء اعتادوا أن يدعوا مثل هذا التوافق الفكرى « توارد خواطر » ، ولكن توارد الخواطر هذا لا ينطبق على حالة الرابطيين ، لأن معناه أن يقع اثنان أو أكثر من الكتّاب أو الشعراء على معنى واحد عفواً ومن دون قصد ؛ أما الرابطيون فإن الذى بينهم هو وحدة فى العقائد والمبادئ الفكرية والأدبية والإنسانية ، وفهم مشترك فى الأدب واللغة ، وتآلف روحى على تأدية رسالة أدبية وإنسانية واحدة ، ولذلك فالذى بينهم هو « اشتراك مقصود » وليس مجرد « توارد خواطر » .